أبو تمام شيخ البيان

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

والسائر من شعر أبى تمام لا يقل فى الصفات التى تؤهله لأن يسير عن شعر المتنبى السائر. وترى كثيراً من هذا الشعر السائر فى جميع أبواب شعر أبى تمام من مدح أو رثاء أو وصف أو هجاء، وله أبيات كثيرة تدل على بصيرة وفهم وذكاء، وأسباب السيرورة هى التوفيق فى الصناعة والإيجاز والبيان والوضوح وسهولة اللفظ وقوة السيل الشعرى المنبعث من النفس وسلامة الفطرة والذوق. ولأبى تمام أبيات صارت ملكا مشاعاً مثل قوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

ومثل قوله:

فلا تحسباهنداً لها الغدر وحدها سجية نفس، كل غانية هند

وقوله:

ومن لم يُسَلِّم للنوائب أصبحت خلائقه طرا عليه نوائبا

وقوله:

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

وقوله:

وقد يستر الإنسان باللفظ خُلقَه فيظهر عنه الطرف ما كان يستر

وفى رواية فعله (أى سبب فعله) بدل خلقه؛ وقوله أيضاً:

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العُود ما بقى اللحاء

وقوله:

وإنى رأيت الوشم فى حُلُق الفتى هو الوشم لا ما كان فى الشعر والجلد

وقوله فى تعزية الرثاء من قصيدة جليلة مشهورة:

أتصبر للبلوى عزاء وحِسْبَةً فتؤجر أم تسلو سلوَّ البهائم

وقوله:

لذلك قيل بعض المنع أدنى إلى مجد، وبعض الجود عار

وقوله:

ليس الغبىُّ بسيد فى قومه لكنَّ سيد قومه المتغابى

وقوله:

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

وقوله وفيه روايتان فى اللفظ:

ومن الحزامة لو تكون حزامة ألا تؤخر من به تتقدم

وقوله:

إن شئتَ أن يَسْوَدَّ ظنك كله فأجِلْهُ فى هذا السواد الأعظم

يعنى جمهور الناس. وقوله:

فصرت أذَلَّ من معنى دقيق به فقر إلى فهم جليل

وقوله:

قد يُنْعِم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقوله:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تنال إلا على جسر من التعب

وقوله:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

وقوله:

سكن الكثيب فيهمُ إنَّ من أء ظم إرْب ألا تُسَمَّى أريبا

وقوله:

فقد تألف العين الدجا وهو قيدها ويُرْجَى شفاء السم والسم قاتل

وقوله:

أنكرتهم نفسى وما ذلك الإ كار إلا من شدة العرفان

إن كلية الآداب لها مهمة أعظم مما تظنون.

لا يراد من كلية الآداب أن تقف عند المحكيات فى الشئون الأدبية والفلسفية، وإنما يراد من كلية الآداب أن توقظ غافيات العقول، وأن تخلق الفرص لوثبات الأخيلة والأحاسيس. فمن كان يظن أنه انتصر على كلية الآداب حين رجمها بالحجارة والطوب فليتم قرير العين.

أما كلية الآداب فمن حقها أن تعتز وتستطيل بأن يكون لها فى حياة العقل تاريخ.

« مصر الجديدة » زكى مبارك

(تنبيه): فى مقالة (مهيار) صحة اسم الشاعر الفارسى الفردوسى لا الفيروزى

وإساءات ذى الإساءة يُذْكِرُ نَكَ يوماً إحسان ذى الإحسان

وقوله :

وقديماً ما اسْتُنْبِطَتْ طاعة الخا لق إلاّ من طاعة المخلوق

وهذا البيت الأخير فيه إلمام بمذهب الملاحدة الذين يقولون إن الاعتقاد بالخالق فكرة إنسانية ولها نشأة بشرية فى قديم الزمن بسبب تأليه رب الأسرة ورئيس القبيلة فى العصور التى قبل التاريخ. على أن البيت يصح تأويله بما لا يخالف الدين. وقد طعنوا فى عقيدة أبى تمام بسبب تركه للصلاة والصوم وقوله فى المشاعر والفروض الدينية كلاما ، كما جاء فى كتاب مروج الذهب للمسعودى وفى غيره من الكتب . وقد طعنوا أيضاً فى نسبته إلى طى، وبعضهم صحح نسبته إلى طى وقال إنه نشأ فى فرع مسيحى منها ثم تظاهر باعتناق الإسلام ؛ وقد مدح الإسلام فى مدحه للخلفاء والوجهاء، ووصف المسيحيين بالشرك والكفر وعبادة الأصنام كما قال فى مدحه المعتصم ووصف فتحه مدينة (عمورية) وإذا أردنا أن نحصى خلاصة الخلاصة من شعر أبى تمام لم نستطع أن نستغنى عن المدح، وإن استطعنا الاستغناء عن المدح عند إحصاء خلاصة الخلاصة من شاعر كالشريف الرضى فإن شعر المدح فى صنعة أبى تمام يحبب إلى القارئ قراءة المدح حتى ولو كان ممن لا يميل إليه . انظر إلى قوله :

نَسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

أو قوله :

خدم العلى فخدمته وهى التى لا تَخدم الأقوام ما لم تُخدَم

أو قوله :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله[1]

أو قوله :

فلو صورتَ نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

أو قوله :

غَرَّبتهُ العلى على كثرة الأه لِ فأضحى فى الأقربين جنيبا

وله قصائد كثيرة فخمة حلوة فى المدح مثل قصيدته فى محمد ابن عبد الملك الزيات التى يقول فى مطلعها :

لهان علينا أن نقول وتفعلا ونذكر بعض الفضل منك فنفضلا

أو الأبيات التى يقول فيها :

ليس الحجاب بمُنقِصٍ عنك لى أملا إن السماء تُرَجَّى حين تحتجب

وإجادته فى المدح إجادة يطول حصرها ، وهى ليست فى مدح الأحياء فحسب بل هى أيضاً فى مدح الموتى فى الرثاء مثل قوله :

هيهات أن يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

أو قوله فى رثاء بنى حميد :

وانفس تَسعُ الأرض الفضاء فلا يرضون أو يجشموها فوق ما تَسعُ

يود أعداؤهم لو أنهم قُتِلُوا وأنهم صنعوا بعض الذى صنعوا

عهدى بهم تستنير الأرض إن نزلوا بها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا

أو قوله من رثاء ابنى عبد الله بن طاهر : « نجمان شاء الله ألا يطلعا » إلى آخر القصيدة وهى من مأثور قوله وبها بيت يتمثل به كثيراً وهو قوله :

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدراً كاملا

وقوله أيضاً فى مدح الرثاء :

فالماء ليس عجيباً أنّ أعذبه يفنى ويعتد عمر الآجن الأسن

وأكثر رثائه على هذا النمط : رثاء صنعة فخمة رائعة لا رثاء حرقة ولوعة ، ولا رثاء وجدان ؛ ومن أجلّ رثاء الصنعة قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عذر

ولا ينقص من قدرها أنها من رثاء الصنعة فإن الشعر كالفاكهة أنواع ولكل نوع طعم ولذة. وله مع ذلك قصائد من شعر رثاء العاطفة والوجدان مثل رثائه لأخيه الذى أوله :

إنى أظن البلى لو كان يفهمه صد البلى عن بقايا وجهه الحسن

والقصيدة التى يقول فيها : « بأرّان لى خل مقيم وصاحب » ولكنه أحياناً تفيض العاطفة من رثائه كما قال فى رثاء جارية له :

(١) هذا البيت ينسب أيضا إلى مسلم بن الوليد

يقولون لا يبكى الفتى لحريدة إذا ما أراداعتاض عشراً مكانها
وهل يستميض المرء عن عُشرِ كفه
ولو صاغ من حُرِّ اللجين بنانها

فالتعليل يدل على الذكاء، ولكن ليس هذا رثاء العاطفة؛ وكان ينبغى أن تكون حجته منزلة الجارية من نفسه لا أن يضعها بمنزلة عشر الكف. ومثل هذا رثاؤه محمد بن حميد إذ يقول إنه رآه فى الحلم فسأله: ألم تمت؟ قال: لا... كيف يموت من كان كريماً مثلى كرمه خالد. وكان ينبغى أن يجعل المرثى أرفع من أن يقول هذا القول الذى كان يستطيع الشاعر نفسه أن يقوله فيه بدل أن يضع المرثى موضع المفاخر بكرمه وإنه لو كان حياً لكان حرياً به أن يرى من الكرم ألا يفتخر بالكرم والبيت هو :

ألم تمت يا شقيق الجود من زمن فقال لى لم يمت من لم يمت كرُمهْ

ومن رثاء العاطفة قوله فى رثاء ابنه وكان وحيداً بدليل قوله (بُنَىَّ يا أوحد البنينا) وهذه القصيدة هى التى مطلعها : (قد كان ما خفت أن يكونا) ولكنها ليست شيئاً إذا وضعت بجانب قصيدة ابن الرومى الدالية فى رثاء ابنه وهى التى مطلعها : (بكاؤكما يشفى وإنْ كان لا يُجْدى) . وإذا قارنا بين غزل أبى تمام وبين أقواله فى المودة والإخوان وجدنا شعره فى الإخوانيات أكثر عاطفة ووجداناً وأعلى مرتبة فى الشعر مثل قوله :

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابهِ
وإذا طربت إلى المدام شربتُ مِنْ أخلاقه وسكرت من آدابهِ
وتراه يصغى للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى بهِ

أو قوله :

عصابة جاورت آدابهم أدبى فهم وإن فُرِّقوا فى الأرض جيرانى
أرواحنا من مكان واحد وغدت أبداننا بشآم أو خراسان
ورب نأى المغانى روحه أبداً لصيق روحى ودان ليس بالدانى

أو قوله :

جليد على ريب الخطوب وعتبها وليس على عتب الأخلاء بالجلد

أو قوله :

وقلت أخٌ قالوا أخ من قرابة فقلت لهم إن الشكول أقارب
نسيبى فى عزمى ورأيى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأصول المناسب

أو قوله .

خليلىَّ ما ارْتَمَتْ طرفى بهجة ولا انبسطتْ منى إلى لذةٍ يد
ولا استحدثت نفسى خليلاً مُجَدَّداً فيذهلنى عنه الخليل المجدد

أو قصيدته فى على بن الجهم التى يقول فيها إن ودها (عذب تحدّر من غمام واحد) أو قوله :

وتكشُّفُ الإخوان إن كشَّفتهُمْ ينسيك طول تصرف الأيام

أما غزله فكثير منه من قبيل التغزل بالغلمان وأكثره غزل حواس وليس به عاطفة عميقة أو وجدان. وأكثره مقطوعات صغيرة فى أغراض أكثرها بنت ساعتها ولعلها من عفو القريحة. هكذا أكثر غزله ولو أن به ذكر الدموع التى تحولت إلى دماء (إفنِ صبرى واجعل الدمع دما) ، وذكر آلام الحب وحرقاته ولكنه ذكر لا يدل على شعور عميق كما يدل غزل العذريين ، ولا على وجدان كوجدان العباس بن الأحنف أو كوجدان الشريف الرضى . وله فى أول قصائد المدح بعض الغزل الرقيق ، وهو مولع بذكر محاسن أعضاء الجسم كالعيون والخدود ... الخ . أنظر قوله :

صبَّ الشبابُ عليها وهو مُقتبَلٌ ماء من الحسن ما فى صفوه كدر
لولا العيون وتفاح الخدود إذاً ما كان يحسد أعمى من له بَصرُ

وكثير من غزله يشبه غزل أبى نواس ، ولعل هذا هو سبب ورود قصائد فى الغزل فى ديوانه وفى ديوان أبى نواس مثل التى أولها (قال الوشاة بدا فى الخد الخ) والتى أولها (أفنيت فيك معانى الشكوى) والتى أولها (وفاتن الألحاظ والخد) . ومما هو شبيه بالغزل فى قصائد المديح مما يستحسن الأبيات التى يقول فيها :

أدار البؤس حسنكِ التصابى إلىَّ فصرت جنات النعيم

والتى يقول فيها :

يا موسم اللذات غالتك النوى بعدى فربك للصبابة موسم

والتى يقول فيها :

أصبحت روضة الشباب هشيما وغدت بهجه الليل سحوما

والتى يقول فيها :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحـــلام

وله فى الغزل والوصف :

باشر المـاء وهو فى رقة الصنـــعة كالماء غير أنْ ليس يجرى
خدش الماء جلدَهُ الرطب حتى خلتـــه لابساً غلالة خمر

أما قوله فى المغنية الفارسية فمن عذب القول وهى قصيدة مطربة وهى التى يقول فيها :

ولم أفهم معانيها ولـكن وَرَت كبدي فلم أجهل شجاها

وفى باب الوصف من شعره أشياء بلغت منزلة عالية من الجودة تجعلنا نأسف لقلتها ونود منها المزيد . ومن هذه القصائد وصفه لفتح عمورية ، ووصف السحابة فى أرجوزتها المشهورة ، ووصف القلم فى قصيدة يقول فيها : (لك القلم الأعلى الذى بشبابه) وهو وصف مشهور أيضاً وهو من قصيدة مدح كوصف فتح عمورية . ومن وصفه أيضاً أرجوزة (إن الربيع أثر الزمان) ، ومنها أخذ البحترى قوله : (وجاء الربيع الطلق يختال ضاحكا[1]) . وأحسن قصائده فى وصف الطبيعة قصيدته التى يقول فى أولها : (رقت حواشى الدهر فهى تمرمرُ) وفيها يقول البيت المشهور :

ترياً نهاراً مشمساً قد شَابَهُ نَوْرُ الرُّبَى فكأنما هو مقمر

والنَّوْرُ الذى يحدث هذا الأثر هو النور الذى له لون يغض من اصفرار أشعة الشمس كأن يكون لونه أبيض ، ولا يحس القارئ مقدار صدق هذا الوصف إلا عند المشاهدة . وله فى وصف الخمر قصيدته التى مطلعها : (قَدْكَ اتَّئِبْ أربيتَ فى الغلواء) وفيها يقول :

صبت وراض المزج سَيءَ خلقها فتعلمت من حسن خلق المـاء
وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت ، كذلك قدرة الضعفاء
وكأن بهجتها وبهجة كأسها نارٌ ونورٌ قُيِّدَا بوعاء
أو درة بيضاء بِكْرٌ أطبقت حمـــلاً على ياقوتة حمراء
يخفى الزجاجة لونهـا فكأنها فى الكف قائمة بغير إناء
ولهـا نسيم كالرياض تنفست فى أوجـه الأرواح بالأنداء

وقد أسقطت بعض الأبيات للاقتصار ، والبيتان الأخيران ينسبان إلى البحترى أيضاً فى قصيدة له . ولأبى تمام إجادة فى الهجاء وله فيه قصائد سائرة مثل قوله :

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسـار
كُسِيَت سبائب لؤمة فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار

وقوله :

مساوٍ لو قُسِمْنَ على النوانى لمـا جُهِّزْنَ إلاَّ بالطلاق

فخلاصة الخلاصة من شعره لابد أن تشمل شيئاً من كل باب وهذا يدل على علو منزلته ومقدرته .

عبد الرحمن شكرى

(١) فى مقال عن البحترى سيشار إلى صلته الأدبية بأبى تمام . وقد أطال الآمدى فى المقارنة بينهما فى كتاب (الموازنة)